المحاضرة الخامسة: المراثي النبوية

تمهيد:

لقد كانت وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم حدثا كبيرا في حياة الأمة الإسلامية، كما كانت إيذانا ببداية عهد جديد، يختلف عن فترة حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وقد رثاه شعراء الصحابة بقصائد شعرية بقيت خالدة في كتب الأدب والسير إلى يومنا هذا.

لقد عرف الرثاء منذ العصر الجاهلي فكان يعني البكاء على الفقيد والتفجع لموته وكانت معانيه غير مهذبة ومع مجيء الإسلام تهذب بحلة جديدة مخالفة عن تلك التي تميز بها في الجاهلية، فقد صار يصدر عن نفس مؤمنة بقضاء الله وقدره . وعقب وفاة الرسول "صلى الله عليه وسلم" ظهرت المراثي *النبوية* وهي :" تلك النصوص الشعرية التي قالها الشعراء في رثاء النبي "صلى الله عليه وسلم "فكانت نصوصهم الشعرية لينة توحي بحزنهم وألم الفقد وفي نفس الوقت تدل على فضائل الحبيب المصطفى منها (الهادي ، النور، الإمام وغيرها (.إذ ذُكرت الكثير من النصوص الشعرية للشعراء في رثاء سيد الخلق خلال عصر صدر الإسلام على رأسها مراثي "حسان بن ثابت" .

الرثاء: يعد الرثاء من أهم الموضوعات الشعرية في العصر الجاهلي؛ ويعرفه الدكتور شوقي ضيف بقوله:" الرثاء من الموضوعات البارزة في شعرنا، إذ طالما بكى شعراؤنا من رحلوا عن دنياهم وسبقوهم إلى الدار الآخرة، وهو بكاء يتعمق في القدم"[1] .

ويعرف قدامه بن جعفر شعر المراثي، بقوله:" إنه ليس بين المرثية والمدحة فصل إلا أن يذكر في اللفظ ما يدل على أنه لهالك، مثل: كان وتولى وقضى نحبه وما أشبه ذلك، وهذا ليس يزيد في المعنى ولا ينقص منه، لأن تأبين الميت إنما هو بمثل ما كان يمدح به في حياته، وقد يفعل في التأبين شيء ينفصل به لفظه عن لفظ المدح بغير كان وما جرى مجراها، وهو أن يكون الحي وصف مثلاً بالجود، فلا يقل: كان جواداً ولكن بأن يقال: ذهب الجود أو فنم للجود بعده ومثل: تولى الجود وما أشبه هذه الأشياء"[2] .

وقد أضاف ابن رشيق على تعريف قدامة، فقال:" وليس بين الرثاء والمدح فرق؛ إلا أنه يخلط بالرثاء شيء يدل على أن المقصود به ميت مثل " كان " أو " عدمنا به كيت وكيت " وما يشاكل هذا وليعلم أنه ميت وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع، بين الحسرة، مخلوطاً بالتلهف والأسف والاستعظام، إن كان الميت ملكاً أو رئيساً كبيراً "[3] .

---

[1]– شوقي ضيف: الرثاء ، دار المعارف، القاهرة،مصر، ص 05.

[2]– قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تح محمد عبد المنعم خفاجي، ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ، ص 118.

[3]– قدامة بن جعفر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح. محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ج2، ص 147.

المراثي النبوية:

لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم، بكاه صحابته بكاء شديدا، وكان منهم من ثارت شاعريته فرثاه منهم بمقطوعات شعرية قصيرة، ويقول شوقي ضيف:" حينما أفل كوكب الرسالة الإسلامية الذي أضاء ما بين المشرق والمغرب هلع الصحابة رضوان الله عليهم، وفزعوا لهذا النبإ المفجع، وكاد عمرو بن الخطاب أن لا يصدق، لولا أن رده أبو بكر إلى صوابه . وخرج الصحابة يصلون عليه ويشيعونه إلى مثواه العطر بقلوب واجفة وعيون باكية"[1]. ويعلق الدكتور شوقي ضيف على المشهد الحزين الذي خيم على المدينة المنورة:"واستحالت المدينة المنورة إلى بركان يقذف بحمم الندب والبكاء، واشتعلت نيران الحزن في كل صدر وفي كل قلب، ولولا أن أخذ الصحابة يتلون في القرآن الكريم مثل قوله تعالى:(إنك ميت وإنهم ميتون)، (أفئن مت فهم الخالدون) (كل نفس ذائقة الموت)، فبدأت السكينة تنزل على نفوسهم، وثابوا إلى رشدهم ليبلغوا رسالته المضيئة أطراف الأرض"[2]

وقد نقل عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها قالت في رثاء أبيها: [3]

اِغبــــرّ آفـــــاقُ الســــــماءِ وكـــــوّرت شـــــمسُ النهـــــارِ وأظلـــــم العصـــــرانِ
فَـــالأرضُ مِـــن بعـــدِ النبـــيّ كئيبـــةٌ أَســـــفاً عليـــــه كثيـــــرةُ الرجفـــــانِ
فَلَيبكـــــهِ شـــــرقُ الـــــبلادِ وغربُهـــــا وَلَيَبكـــــهِ مضـــــرٌ وكـــــلّ يَمـــــاني
وَلَيبكـــــهِ الطـــــور المعظّـــــمُ جـــــوّهُ وَالبيـــــتُ ذو الأســـــتارِ والأركـــــانِ
يـــــا خـــــاتم الرّســـــلِ المبـــــارك ضـــــوؤه صـــــلّى عليـــــكَ منـــــزّل الفرقـــــانِ
نَفســـــي فـــــداؤكَ مـــــا لرأســـــكَ مـــــائلا مـــــا وسّـــــدوك وســـــادة الوســـــنانِ

وتعلق الدكتورة نهى محمد الدليمي على مرثية فاطمة بنت النبي لأبيها، بقولها:" فالسيدة فاطمة تشعر بمظاهر الحزن والأسى لفقد هادي البشرية وهي تشرك مظاهر الطبيعة بهذا الحزن العميق من اغبرار أفاق السماء، وتكوير الشمس وإظلام العصرين وكآبة الأرض ورجفانها وبكاء الطور المعظم والبيت والأركان. وهي تدعوها للبكاء معها على فقيد الأمة الذي صلت عليه ملائكة الرحمة جميعا فهي تجربة داخلية شفافة"[4].

ورثت النبي صلى الله عليه وسلم، عمته صفية بمراثى كثيرة منها قولها: [5]

---

[1]– شوقي ضيف: الرثاء، ص 05.

[2]– شوقي ضيف: الرثاء، ص 35.

[3]– الحصري القيرواني: زهر الآداب وثمر الألباب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،1971، ج1، ص 42.

[4]– نهى محمد الدليمي: الحياة والموت في شعر صدر الإسلام، دار الخليج للنشر والتوزيع، 2019عمان،الأردن،ص72.

[5]– عبد الباقي الزرقاني: شرح العلامة الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، تح. محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت،لبنان،1971، ج12، ص 149–150 .

ألا يـــا رســـول الله كنـــت رجاءنـــا ... وكنـــت بنـــا بـــرّا ولـــم تـــك جافيـــا
وكنـــت رحيمـــا هاديـــا ومعلمـــا ... ليبـــك عليـــك اليـــوم مـــن كـــان باكيـــا
لعمـــرك مـــا أبكـــى النبـــى لفقـــده ... ولكـــن لمـــا أخشـــى مـــن الهجـــر آتيـــا
كـــأن علـــى قلبـــى لـــذكر محمـــد ... ومـــا خفـــت مـــن بعـــد النبـــى المكاويـــا
أفـــاطم صـــلى الله رب محمـــد ... علـــى جـــدث أمســـى بيثـــرب ثاويـــا
فـــدى لرســـول الله أمـــى وخـــالتى ... وعمـــى وخـــالى ثـــم نفســـى ومماليـــا
فلـــو أن رب النـــاس أبقـــى نبينـــا ... ســـعدنا ولكـــن أمـــره كـــان ماضـــيا
عليـــك مـــن الله الســـلام تحيـــة ... وأدخلـــت جنـــات مـــن العـــدن راضـــيا
أرى حســـنا أيتمتـــه وتركتـــه ... يبكّـــى ويـــدعو جـــده اليـــوم نائيـــا

ورثاه أبو سفيان بن الحارث، بقوله[1]:

أرقـــت فبـــت ليلـــى لا يـــزول ... وليـــل أخـــى المصـــيبة فيـــه طـــول
وأســـعدنى البكـــاء وذاك فيمـــا ... أصـــيب المســـلمون بـــه قليـــل
لقـــد عظمـــت مصـــيبتنا وجلـــت ... عشـــية قيـــل قـــد قـــبض الرســـول
وأضـــحت أرضـــنا ممـــا عراهـــا ... تكـــاد بنـــا جوانبهـــا تميـــل
فقـــدنا الـــوحى والتنزيـــل فينـــا ... يـــروح بـــه ويغـــدو جبرائيـــل
وذاك أحـــق مـــا ســـالت عليـــه ... نفـــوس النـــاس أو كـــادت تســـيل
نبـــى كـــان يجلـــو الشـــك عنـــا ... بمـــا يـــوحى إليـــه ومـــا يقـــول
ويهـــديناا فـــلا نخشـــى ضـــلالا ... علينـــا والرســـول لنـــا دليـــل
أفـــاطم إن جزعـــت فـــذاك عـــذر ... وإن لـــم تجزعـــى ذاك الســـبيل
فقبـــر أبيـــك ســـيد كـــل قبـــر ... وفيـــه ســـيد النـــاس الرســـول

ورثاه صاحبه أبو بكر الصديق، فقال: [2]

لمـــا رأيـــت نبينـــا متجنـــدلا ... ضـــاقت علـــى بعرضـــهن الـــدور
فارتـــاع قلبـــى عنـــد ذاك لهلكـــه ... والعظـــم منـــى مـــا حييـــت كســـير
أعتيـــق ويحـــك إن حبـــك قـــد ثـــوى ... فالصـــبر عنـــك لمـــا لقيـــت يســـير
يـــا ليتنـــى مـــن قبـــل مهلـــك صـــاحبى ... غيبـــت فـــى جـــدث علـــى صـــخور
فلتحـــدثن بـــدائع مـــن بعـــده ... يعيـــى بهـــن جـــوارح وصـــدور

---

[1]– عبد الباقي الزرقاني: شرح العلامة الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، تح. محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت،لبنان،1971، ج12، ص150 – 151.

[2]– عبد الباقي الزرقاني: شرح العلامة الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، ج12، ص150 – 151.

ومن الشعراء الذين رثوا النبي صلى الله عليه وسلم، **حسان بن ثابت الأنصاري:** "[1]

بِطَيبَـــةَ رَســـمٌ لِلرَســـولِ وَمَعهَـــدُ ... مُنيـــرٌ وَقَـــد تَعفـــو الرُســـومُ وَتَهمَـــدِ

وَلا تَنْمَحـــي الآيـــاتُ مِـــن دارِ حُرمَـــةٍ ... بِهـــا مِنبَـــرُ الهـــادي الَـــذي كـــانَ يَصـــعَدُ

وَواضِـــحُ آثـــارٍ وَبـــاقي مَعـــالِمٍ ... وَرَبـــعٌ لَـــهُ فيـــهِ مُصَـــلّى وَمَســـجِدُ

بِهـــا حُجُـــراتٌ كـــانَ يَنـــزِلُ وَســـطَها ... مِـــنَ اللَـــهِ نـــورٌ يُستَضـــاءُ وَيوقَـــدُ

مَعـــالم لَـــم تُطمَـــس عَلـــى العَهـــدِ آيُهـــا ... أَتاهـــا البِلـــى فَـــالآيُ مِنهـــا تُجَـــدَّدُ

عَرِفـــتُ بِهـــا رَســـمَ الرَســـولِ وَعَهـــدَهُ ... وَقَبـــراً بِـــهِ واراهُ فـــي التُـــربِ مُلحِـــدُ

ظَلَلـــتُ بِهـــا أَبكـــي الرَســـولِ فَأَســـعَدَت ... عُيـــونٌ وَمِثلاهـــا مِـــنَ الجِفـــنِّ تُســـعَدُ

تَـــذَكَّرُ آلاءَ الرَســـولِ وَمـــا أَرى ... لَهـــا مُحصِـــياً نَفســـي فَنَفســـي تَبَلَّـــدُ

مُفَجَّعَـــةً قَـــد شَـــفَّها فَقـــدُ أَحمَـــدٍ ... فَظَلَّـــت لِآلاءِ الرَســـولِ تُعَـــدِّدُ

وَمـــا بَلَغَـــت مِـــن كُـــلِّ أَمـــرٍ عَشـــيرَهُ ... وَلَكِـــن لِنَفســـي بَعـــدُ مـــا قَـــد تَوَجَّـــدُ

أَطالَـــت وُقوفـــاً تَـــذرِفُ العَـــينُ جُهـــدَها ... عَلـــى طَلَـــلِ القَبـــرِ الَـــذي فيـــهِ أَحمَـــدُ

فَبورِكـــتَ يـــا قَبـــرَ الرَســـولِ وَبورِكَـــت ... بِـــلادٌ ثَـــوى فيهـــا الرَشـــيدُ المُســـَدَّدُ

وَبـــورِكَ لَحـــدٌ مِنـــكَ ضُـــمِّنَ طَيِّبـــاً ... عَلَيـــهِ بِنـــاءٌ مِـــن صَـــفيحٍ مُنَضَّـــدُ

تَهيـــلُ عَلَيـــهِ التُـــربَ أَيـــدٍ وَأَعـــيُنٌ ... عَلَيـــهِ وَقَـــد غـــارَت بِـــذَلِكَ أَســـعُدُ

لَقَـــد غَيَّبـــوا حِلمـــاً وَعِلمـــاً وَرَحمَـــةً ... عَشِـــيَّةَ عَلَّـــوهُ الثَـــرى لا يُوَسَّـــدُ

وَراحـــوا بِحُـــزنٍ لَـــيسَ فـــيهِم نَبـــيُّهُم ... وَقَـــد وَهَنَـــت مِـــنهُم ظُهـــورٌ وَأَعضُـــدُ

يُبَكّـــونَ مَـــن تَبكـــي السَـــمَواتُ يَومَـــه ... وَمَـــن قَـــد بَكَتـــهُ الأَرضُ فَالنـــاسُ أَكمَـــدُ

وَهَـــل عَـــدَلَت يَومـــاً رَزِيَّـــةُ هالِـــك ... رَزِيَّـــةَ يَـــومٍ مـــاتَ فيـــهِ مُحَمَّـــدُ

تَقَطَّـــعَ فيـــهِ مُنـــزَلُ الـــوَحيِ عَـــنهُمُ ... وَقَـــد كـــانَ ذا نـــورٍ يَغـــورُ وَيُنجِـــدُ

يَـــدُلُّ عَلـــى الـــرَحمَنِ مَـــن يَقتَـــدي بِـــهِ ... وَيُنقِـــذُ مِـــن هَـــولِ الخَزايـــا وَيُرشِـــدُ

إِمـــامٌ لَهُـــم يَهـــديهِمُ الحَـــقَّ جاهِـــداً ... مُعَلِّـــمُ صِـــدقٍ إِن يُطيعـــوهُ يَســـعَدوا

عَفُـــوٌّ عَـــنِ الـــزَلّاتِ يَقبَـــلُ عُـــذرَهُم ... وَإِن يُحسِـــنوا فَاللَـــهُ بِـــالخَيرِ أَجـــوَدُ

وَإِن نـــابَ أَمـــرٌ لَـــم يَقومـــوا بِحَملِـــهِ ... فَمِـــن عِنـــدِهِ تَيســـيرُ مـــا يَتَشَـــدَّدُ

فَبينـــا هُـــمُ فـــي نِعمَـــةِ اللَـــهِ وَســـطَهُم ... دَليـــلٌ بِـــهِ نَهـــجُ الطَريقَـــةِ يُقصَـــدُ

عَزيـــزٌ عَلَيـــهِ أَن يَجـــوروا عَـــنِ الهُـــدى ... حَـــريصٌ عَلـــى أَن يَســـتَقيموا وَيَهتَـــدوا

---

[1]– عبد الرحمن البرقوقي: شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، (ط04)، دار الكتاب العربي، بيروت،لبنان، 2006، ص 91.

عَطــــوفٌ عَلَــــيهِم لا يُثَنّــــي جَناحَــــهُ ... إِلـــى كَنَــــفٍ يَحنـــو عَلَــــيهِم وَيَمهَــــدُ

فَبَينـــا هُـــمُ فـــي ذَلِـــكَ النـــورِ إِذ غَـــدا ... إِلـــى نـــورِهِم سَـــهمٌ مِـــنَ المَـــوتِ مُقصَـــدُ

فَأَصـــبَحَ مَحمـــوداً إِلـــى اللَـــهِ راجِعـــاً ... يُبكيـــهِ حَـــقُّ المُرسِـــلاتِ وَيُحمَـــدُ

وَأَمسَـــت بِـــلادُ الحُـــرمَ وَحشـــاً بِقاعُهـــا ... لِغَيبَـــةِ مـــا كانَـــت مِـــنَ الـــوَحيِ تَعهَـــدُ

قِفـــاراً سِـــوى مَعمـــورَةِ اللَحـــدِ ضـــافَها ... فَقيـــدٌ تُبَكّيـــهِ بَـــلاطٌ وَغَرقَـــدُ

وَمَســـجِدُهُ فَالموحِشـــاتُ لِفَقـــدِهِ ... خَـــلاءٌ لَـــهُ فيـــهِ مَقـــامٌ وَمَقعَـــدُ

وَبِـــالجَمرَةِ الكُبـــرى لَـــهُ ثَـــمَّ أَوحَشَـــت ... دِيـــارٌ وَعَرصـــاتٌ وَرَبـــعٌ وَمَولِـــدُ

فَبَكّـــي رَســـولَ اللَـــهِ يـــا عَـــينُ عَبـــرَةً ... وَلا أَعرِفَنـــكِ الـــدَهرَ دَمعَـــكِ يَجمَـــدُ

وَمـــا لَـــكِ لا تَبكـــينَ ذا النِعمَـــةِ الَّتـــي ... عَلـــى النـــاسِ مِنهـــا ســـابِغٌ يَتَغَمَّـــدُ

فَجـــودي عَلَيـــهِ بِالـــدُموعِ وَأَعـــوِلي ... لِفَقـــدِ الَـــذي لا مِثلُـــهُ الـــدَهرُ يوجَـــدُ

وَمـــا فَقَـــدَ الماضـــونَ مِثـــلَ مُحَمَّـــد ... وَلا مِثلُـــهُ حَتّـــى القِيامَـــةِ يُفقَـــدُ

أَعَـــفَّ وَأَوفـــى ذِمَّـــةً بَعـــدَ ذِمَّـــةٍ ... وَأَقـــرَبَ مِنـــهُ نـــايِلاً لا يُنَكَّـــدُ

وَأَبـــذَلَ مِنـــهُ لِلطَريـــفِ وَتالِـــدٍ ... إِذا ضَـــنَّ مِعطـــاءُ بِمـــا كـــانَ يُتلَـــدُ

وَأَكـــرَمَ صـــيتاً فـــي البُيـــوتِ إِذا اِنتَمـــى ... وَأَكـــرَمَ جَـــدّاً أَبطَحيّـــاً يُســـوَّدُ

وَأَمنَـــعَ ذِرواتٍ وَأَثبَـــتَ فـــي العُلـــى ... دَعـــائِمَ عِـــزٍّ شـــامِخاتٍ تُشَـــيَّدُ

وَأَثبَـــتَ فَرعـــاً فـــي الفُـــروعِ وَمَنبِتـــاً ... وَعـــوداً غَـــذاهُ المُـــزنُ فَـــالعودُ أَغيَـــدُ

رَبـــاهُ وَليـــداً فَاِســـتَتَمَّ تَمامُـــهُ ... عَلـــى أَكـــرَمِ الخَيـــراتِ رَبٌّ مُمَجَّـــدُ

تَناهَـــت وَصـــاةُ المُســـلِمينَ بِكَفِّـــهِ ... فَـــلا العِلـــمِ مَحبـــوسٌ وَلا الـــرَأيُ يُفنَـــدُ

أَقـــولُ وَلا يُلفـــى لِمـــا قُلـــتُ عائِـــبٌ ... مِـــنَ النـــاسِ إِلّا عـــازِبُ العَقـــلِ مُبعَـــدُ

وَلَـــيسَ هَـــوايَ نازِعـــاً عَـــن ثَنائِـــهِ ... لَعَلّـــي بِـــهِ فـــي جَنَّـــةِ الخُلـــدِ أَخلَـــدُ

مَـــعَ المُصـــطَفى أَرجـــو بِـــذاكَ جِـــوارَهُ ... وَفـــي نَيـــلِ ذاكَ اليَـــومِ أَســـعى وَأَجهَـــدُ

فَجـــودي عَلَيـــهِ بِالـــدُموعِ وَأَعـــوِلي ... لِفَقـــدِ الَـــذي لا مِثلُـــهُ الـــدَهرُ يوجَـــدُ

وَمـــا فَقَـــدَ الماضـــونَ مِثـــلَ مُحَمَّـــد ... وَلا مِثلُـــهُ حَتّـــى القِيامَـــةِ يُفقَـــدُ

أَعَـــفَّ وَأَوفـــى ذِمَّـــةً بَعـــدَ ذِمَّـــةٍ ... وَأَقـــرَبَ مِنـــهُ نـــايِلاً لا يُنَكَّـــدُ

وَأَبـــذَلَ مِنـــهُ لِلطَريـــفِ وَتالِـــدٍ ... إِذا ضَـــنَّ مِعطـــاءُ بِمـــا كـــانَ يُتلَـــدُ

وَأَكـــرَمَ صـــيتاً فـــي البُيـــوتِ إِذا اِنتَمـــى ... وَأَكـــرَمَ جَـــدّاً أَبطَحيّـــاً يُســـوَّدُ

وَأَمنَـــعَ ذِرواتٍ وَأَثبَـــتَ فـــي العُلـــى ... دَعـــائِمَ عِـــزٍّ شـــامِخاتٍ تُشَـــيَّدُ

وَأَثبَـــتَ فَرعـــاً فـــي الفُـــروعِ وَمَنبِتـــاً ... وَعـــوداً غَـــذاهُ المُـــزنُ فَـــالعودُ أَغيَـــدُ

رَبـــاهُ وَليـــداً فَاِســـتَتَمَّ تَمامُـــهُ ... عَلـــى أَكـــرَمِ الخَيـــراتِ رَبٌّ مُمَجَّـــدُ

تَناهَـــت وَصـــاةُ المُســـلِمينَ بِكَفِّـــهِ فَـــلا العِلـــمِ مَحبـــوسٌ وَلا الـــرَأيُ يُفنَـــدُ

أَقـــولُ وَلا يُلفـــى لِمـــا قُلـــتُ عائِـــبٌ مِـــنَ النـــاسِ إِلّا عـــازِبُ العَقـــلِ مُبعَـــدُ

وَلَـــيسَ هَـــوايَ نازِعـــاً عَـــن ثَنائِـــهِ لَعَلّـــي بِـــهِ فـــي جَنَّـــةِ الخُلـــدِ أَخلَـــدُ

مَـــعَ المُصـــطَفى أَرجـــو بِـــذاكَ جِـــوارَهُ وَفـــي نَيـــلِ ذاكَ اليَـــومِ أَســـعى وَأَجهَـــدُ

يلخص يوسف عيسى بعض خصائص مرثية حسان بن ثابت للنبي صلى الله عليه وسلم:[1]

– صدق العاطفة لقد كان حسان في رثاءه هذا صادقا .

– تركيز حسان على الجوانب التي ركز عليها الشعراء آنذاك في رثائهم رغم أنه حاول أن يستمد من مضمون الدعوة الإسلامية ما يسعفه على إظهار حزنه ويمده على تصوير عظيم مأساته وتأثره.

– بقاء الشاعر في إطار الدعوة السطحي، ولم يستطع أن يبتعد أو يغوص في الجوهر ويستل من الأعماق المؤثرة ما يزين به رثاءه ويصور فاجعته وأساه.

– وهكذا نجد حسَّان حتى في شعره لم يفارق النهج الجاهلي الذي سلكه غيره من الشعراء، ولم يستطع أن يكون المجدد المستفيد من رحاب الدعوة المباركة ليسرح في رحاب الشعر الإنساني الذي تمثله تلك الدعوة.

خصائص شعر المراثي:

عرف الرثاء منذ العصر الجاهلي فكان يعني البكاء على الفقيد والتفجع لموته وكانت معانيه غير مهذبة ومع مجيء الإسلام تهذب بحلة جديدة مخالفة عن تلك التي تميز بها في الجاهلية، فقد صار يصدر عن نفس مؤمنة بقضاء الله وقدره. وعقب وفاة الرسول "صلى الله عليه وسلم" ظهرت المراثي النبوية وهي ": تلك النصوص الشعرية التي قالها الشعراء في رثاء النبي "صلى الله عليه وسلم" فكانت نصوصهم الشعرية لينة توحي بحزنهم وألم الفقد وفي نفس الوقت تدل على فضائل الحبيب المصطفى منها (الهادي ، النور، الإمام وغيرها.

وتظهر نصوص المراثي النبوية في صورة جمالية فنية راقية. إذا استغل الشعراء في تصويرهم لمواقفهم العاطفية الحزينة المتألمة مختلف الصور الفنية المعبرة عن ذلك فأخذوا من الصور البيانية مرتكزا للتعبير عن حالتهم النفسية فأخرجوا تلك الصور العالقة في نفوسهم على شكل تعابير مجازية وتشبيهيه واستعارية وكنائية فكانت هذه الصور متنفسا لهم وتعبيرا للوعي الباطني فأرفضت سحرا بيانيا خاصا على نصوصهم ،وتعتبر اللغة الشعرية إحدى العوامل الجمالية البارزة في مراثيهم بما اشتملته من انزياح تركيبي من تقديم وتأخير وتكرار والتفات وغيرها.

---

[1]–يوسف عيسى: حسان بن ثابت الأنصاري حياته وشعره، (د.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص92–93.